دلالة الزمن النفسي في ثلاثية "أحلام مستغانمي"

(ذاكرة الجسد – فوضى الحواس – عابر سرير)

أ/ نعيمة بن علية

المركز الجامعي –البويرة–

اهتمت" أحلام مستغانمي" في ثلاثيتها بالشخصية، فاتجهت إلى داخلها، وحاولت سبر أعماقها، باستخدام المونولوج الداخلي الذي تقف فيه الذات لتخاطب نفسها، وتبوح بمهموساتها. وهنا تتداخل عناصر الزمن، وتغيب وسط الرموز والصور الذهنية، وتصبح غير خاضعة للمقاييس الخارجية، فيفقد الزمن معناه الموضوعي، ويكتسب معنى جديدا في إطار الحياة الخاصة. ويسمى في هذه الحال داخليا، أو ذاتيا، أو نفسيا. حيث تصور الروائية الشخصية في تفاعلها مع الزمن، باعتباره نابعا من وجودها، ومن إدراكها له، إذ بدونها يموت الإحساس به.

وتعايش الشخصية في الثلاثية الزمن، تبعا لثقل الحدث أو خفته في نطاق حالتها النفسية، أو المزاجية. فإما أن تتذمر من وطأته عليها، وتتمنى أن ينقضي بسرعة، وإما أن تستلطفه، وترغب في بقائه واستمراره. وفي كلتا الحالتين يبرز انفعالها وشعورها به[1].

وبذلك فإن" أحلام مستغانمي" تجسد إحساس الشخصية بمرور الزمن مما يجعل الوحدات الزمنية الداخلية، تحل محل الوحدات الخارجية، لتصبح اللحظات– في هذا الإطار– أكثر دلالة وأهمية من السنوات، مثلما نجد في تعبير" خالد بن طوبال"، بعد مكالمته الهاتفية مع "حياة" : << عندما أغلقت جهازي النقال، شعرت أن كل الفصول قد عبرت في مكالمة واحدة عبر ذبذبات صوتها، وأنني تائه بين إشراقة ضحكتها وغيم صمتها، ورذاذ حزنها السري>>[2].

وهو أبلغ تعبير عن الزمن النفسي، إذ يختصر فصول السنة كلها في مكالمة استغرقت بضع دقائق، تمثل كمية الامتداد الزمني الطبيعي المتعاقب بالتدريج. أما إحساس خالد فلم يتوال بتوالي هذه المدة، وإنما تولد دفعة واحدة وفي شعور واحد، كشف له عالما

خاصا خصوصية العلاقة التي تجمعه بحياة. فقد جعلته اللحظات القليلة يحيا حياة كاملة خلال سنة، بمجرد سماع صوتها. وتظهر حدة هذا الإحساس الداخلي وأهميته، عندما يعود إلى عالمه الطبيعي فينتابه الحزن. وهذا ما يجعل الدقائق مجرد مدة اصطلاحية، لاتعني شيئا بالنسبة لإحساسه.

فالروائية تتبع – في مثل هذه الحالات – مسار شعور الشخصية، وتعطي الأولوية للزمن الداخلي الذي يحمل مهموسات الأنا وأشجانها وتغيب المعايير الموضوعية أمام المشاعر الذاتية. وهي تؤكد بذلك ما ذهب إليه "برغسون"Bergson حين اعتبر الأحاسيس – كونها حالات سيكولوجية – غير قابلة للقياس[3]. وهي رؤية تحدد الشخصية من خلال تجددها عبر اللحظات، بدل الوصف الخارجي، والتعاريف الجاهزة.

ومن هنا نصل إلى مفهوم الزمن النفسي، وعلاقته بالزمن الفيزيائي أو الاصطلاحي في ثلاثية " أحلام مستغانمي" لنبحث – من ثمة – في قيمه الجمالية والدلالية.

مفهوم الزمن النفسي وعلاقته بالزمن الفيزيائي في الثلاثية :

الزمن النفسي هو زمن داخلي ذاتي نسبي، يقدر بالقيم الفردية الخاصة باعتباره نابعا من إحساس الشخصية، حيث تقاس العواطف والمشاعر بالزمن الذي تستشعره الذات نتيجة تفاعلها مع الأحداث، مما يجعل قيمه تختلف باستمرار باختلاف الأشخاص وحتى لدى الشخص الواحد. فالمقياس النسبي هو مقياس نفسية الشخصية، وشعورها وتكيفها مع الحدث، أو عدم تكيفها معه [4] وبذلك فإنه يتجاوز الوحدات الكمية المتفق عليها(الساعات، الأيام، الشهور...) ويتداخل فيه الماضي، والحاضر، والمستقبل.

فهو لصيق بالشخصية، يدخل في صميم حياتها النفسية التي تمنحه مضاه ومن خلالها يتباين الإحساس بسعة امتداده أو تقلصه، نتيجة تباين ظروفها. فلا يمكن أن يكون لخالد، وهو في ساحات القتال، الشعور ذاته بالزمن، عندما يلتقي " أحلام" الفتاة التي زلزلت كيانه، وفجرت فيه كل طاقات الحب التي لا تنضب.فقد كانت أيام المعارك ثقيلة <<قاسية دائما، لا تختلف عما سبقها سوى بعدد شهدائها>>[5] أما معها، فان أوقاتا طويلة تعدو مسرعة، وكأنها لم تكن سوى حلم.

وهكذا تؤثر ظروف الشخصية وأحوالها تأثيرا مباشرا في كيفية تعاقب حالات الوعي لديها، ويكون لذلك دور في جماليات البناء الفني العام وفي تأكيد الأحداث من خلال <<وضع معنى لردود أفعال الشخصيات>>[6].

إلا أن الزمن النفسي في الثلاثية، غير مستقل عن مؤثرات الوجود الفيزيائي الذي يقاس بزمن الساعة والتقاويم المتعارف عليها، والتي وضعت بغرض الحفاظ على النظام العام للحياة اليومية العادية، وتنسيق الأفعال التي تمس أكثر من شخص واحد، كضبط مواقيت العمل، والراحة، والسفر، وغيرها... فهو الطرف الثاني في المعادلة الزمنية التي تجمع بين العامل الذاتي والعامل الموضوعي اللذين يشكلان صورة الزمن الروائي ويكملانها.

وكثيرا ما يتم إسقاط الزمن النفسي على خط الزمن الاصطلاحي لإظهار حدة انفعال الشخصية، ومدى تأثرها بالحدث وتأثيرها فيه.فسفر ناصر إلى ألمانيا وإقامته فيها بتهمة انتمائه إلى جماعة إسلامية مسلحة، جعل والدته دائمة التفكير في أحواله مما اتعب نفسيتها، واثر في صحتها، فقد <<هرول بها العمر سريعا منذ غيابه>>[7] الذي دام سنتين بالمعنى الاصطلاحي، أما من الناحية النفسية فانه يعادل عمرا بأكمله، بالنسبة لام تحترق بعيدا عن فلذة كبدها. وهذا ما جعل حياة تخشى موتها قبل أن تراه، فاختلقت الأسباب كي تذهب معها لرؤيته في فرنسا. وهناك التقت "بخالد بن طوبال" من جديد حيث ذهب ليتسلم جائزته عن الصورة الصحفية التي التقطها لطفل مذهول في إحدى المجازر.

ومن ثمة يواصل الحدث الروائي سيره، ليكشف حقيقة خالد (سارد "ذاكرة الجسد") الذي لم يكن سوى الرسام الجزائري "زيان" وأن "ذاكرة الجسد" لم تكن مجرد قصة تخييلية ، وإنما كانت أحداثا حقيقية عاشت "حياة" بعضها مع هذا الرجل الستيني، الراقد على سرير المرض.

ويتميز الزمن الفيزيائي- عموما – بالحركة المنتظمة، باعتباره نتاجا لتركيب موضوعي موجود في الطبيعة المتسمة بالتغير، وتتابع أوقات اليوم <<أي أنه ليس نابعا من خبرات ذاتية>>[8]. ولهذا فهو يعد أكثر صدقا وموضوعية، ويقبل القياس والحساب على عكس الزمن النفسي الذي يطول ويقصر بحسب الحالات الشعورية للإنسان.

وقد ارتأينا دراسة بعض هذه الحالات، ومدى تأثيرها في الشخصية وعلاقتها بالموضوع العام، من خلال دراسة دلالة كل من زمن الانتظار، وزمن الحلم، والزمن المتوقف أو الثابت بالنسبة إلى شعور الشخصية، وهي ظواهر تتكرر مرات عديدة في نص الثلاثية.

1)دلالة زمن الانتظار في الثلاثية :

تنطوي الثلاثية على مضمون مثير يجعلها أكثر جاذبية وتشويقا، حيث يبعث على الترقب وتتبع مسار الحدث حتى النهاية. ويتمثل في علاقة الحب الجارف بين الرجل والمرأة، والتي تقف عند الحد الفاصل بين التحقق، وعدمه. إذ لا تكاد تتوطد هذه العلاقة بينهما، حتى تؤول إلى الفراق من جديد.

ومن خلال ذلك تظهر مهارات الروائية في استبطان أعماق الذات وفي الإبانة عن انشغال ذهني بالزمن، ذي ارتباط وثيق بالموضوع العام. حيث يبدو أنه لا هاجس للشخصيات الرئيسية -خاصة – سوى الزمن، فهو يطاردها باستمرار، ويتداخل بإحساسها، فتستشعره سلبا أو إيجابا. وتزداد صوره كثافة حين يلامس الحب شغاف قلبها، فيغدو سببا مباشرا في إبراز حدة تفاعلها مع الزمن.

وتمثل (أحلام | حياة) قيمة جمالية و رمزية ، تدور حولها معظم أحداث الثلاثية. فقد جاءت (سي الطاهر) على كبر بعد محاولة زواج فاشلة، لم يرزق منها ذرية، مما غيّره وجعله أكثر رقة ومرونة، وتفهما لأوضاع الآخرين <فقد أصبح يمنح البعض بسهولة أكثر تسريحات (كذا) لزيارة خاطفة يقومون بها إلى أهلهم. هو الذي كان يبخل بها على نفسه. لقد غيرته الأبوة المتأخرة التي جاءت رمزا جاهزا لمستقبل أجمل>>[9] فهي مؤهلة منذ البداية للقيام بهذا الدور الرمزي ،حيث ربطت الروائية ميلادها بتبلور الثورة التحريرية الكبرى لتوحدها بمصير الجزائر في عهدها الجديد. فهي تجسد أحلام أبيها وأحلام المجاهدين بالحرية والاستقلال، وبذلك تفقد صفتها الفردية لتصبح حلما جماعيا بميلاد وطن، يضحي من أجله أبناؤه المخلصون جميعهم.

كما تكتسب سمتها الرمزية أيضا، من كونها ابنة قسنطينة، فحين دخلت معرض خالد – وفي معصمها سوار قسنطيني من تلك الحلي التي لم يكن يخلو منها في الماضي معصم امرأة من الشرق الجزائري – شدت انتباهه، وعادت بذاكرته عمرا إلى الوراء، إلى مدينته التي تفجر فيه الحب والذاكرة، والتي لم يستطع – رغم إقامته في باريس – نسيان وديانها، وجبالها، وصخورها. ولم يمنعه نهر "السين" ولا جسر "ميرابو" المقابلان له عبر النافذة،من أن يرسم جسورها. ولكنه يتعلق بها أكثر

عندما يعرف أنها ابنة قائده الشهيد (سي الطاهر).

ولاسمها الثاني دلالاته أيضا "فحياة" عكس "موت". هي التي تحارب صانعي الموت في الجزائر بالحب، إضافة إلى أنها مبعث لمعاني الجمال الملهم، والمفجر للأحاسيس النبيلة. فهي مطلوبة دائما لرقتها وحنانها وعطائها، لكأنها الحياة كلها. فقد <<كانت امرأة سخية في كل شيء، في خوفها عليك، في انشغالها بك، في اشتهائك، في إمتاعك... وحتى في إيلامك>>[10]. ولذا لا يمكن لمن عرفها من الرجال الانبهار بغيرها بعد ذلك، حتى إن حيواتهم تبدأ من يوم معرفتهم بها. حيث لم يكن في سنوات خالد الرسام الماضية، ما يستحق الذكر، فقد كانت جميع أوراق مفكرته ملأى بأرقام ومواعيد لا معنى لها [11]. ولم تبدأ حياة "خالد بن طوبال" الصحفي، إلا يوم لقائه بها إذ يعتبر أن ميلاده كان <<على يديها ذات 30 أكتوبر، على الساعة الواحدة والربع ظهرا في مقهى>>[12] بقسنطينة.

وفي هذا دلالة على انتباه الشخصيتين إلى فراغ الماضي الذي كان خاليا من كل معنى، واكتشافهما زمنا سواه تكتسب به حياتهما امتلاءها [13] حيث إن كلا منهما ممتن لحياة باكتشافه لزمن جديد، يحمل الكثير من المعاني الإيجابية لحياته.

ولأجل ذلك،يرغب المحبون في اللقاء، ويتفقون على المواعيد. وفي انتظار الموعد، يطول الزمن على العاشق ويبدأ في عد الأيام التي تفصله عن الوقت المحدد. فقد انتظر خالد بشوق كبير قدوم يوم الاثنين، كي يقابل "أحلام" في المعرض، بعدما وعدته بزيارة ثانية. وتحت وطأة الانتظار تطول الأيام وكأنها لا تنتهي، فيتحايل على نفسه كي يقصرها، فيبدأ في عدها بطريقة تساعده للتغلب على الوقت نفسيا. يقول:<<منذ تلك الأيام التي غادرت فيها القاعة رحت أعد الأيام الفاصلة بين يوم الجمعة، ويوم الاثنين. تارة أعدها فتبدو لي أربعة أيام ثم أعود فأختصر الجمعة الذي كان على وشك أن ينتهي، والاثنين الذي سأراك فيه، فتبدو لي المسافة أقصر وأقدر على التحمل، إنها يومان فقط هما السبت والأحد، ثم أعود فأعد الليالي فتبدو لي ثلاث ليالي(كذا) كاملة هي الجمعة والسبت والأحد. أتساءل وأنا أتوقع مسبقا طولها كيف سأقضيها؟>> [14].

وهكذا يعيش خالد زمن الانتظار في حيرة وقلق، فلا يدري كيف ينفقه، وكيف يشغل نفسه حتى لا يشعر بثقله ورتابته. ويمنعه التفكير في الموعد من ممارسة أي عمل، مما يجعل مرور الوقت بطيئا ومرهقا.<<فزمن الانتظار زمن طويل وفارغ>>[15] وذو تأثير في نفسية الشخصية. ويتجلى أثره عندما تتغيب أحلام عن الموعد بسبب حضور عمها (سي الشريف) إلى المعرض حيث يصاب خالد بالإحباط والكآبة، ويعود إلى البيت بخطى مثقلة،

بعدما كان قد جاء<<على أجنحة الشوق الجارف>>[16]. وفي هذا الاهتمام بزمن الانتظار تكشف الروائية دواخل نفسية الشخصية، وتخلق لديها إحساسا بتراكم المدة وتجعل لها نظاما خاصا بحيث تعيش الزمن بشدة وقعه عليها بدل قيمته الحقيقية التي تقدر بتوقيت الساعة. حيث إن طوله هنا هو نتيجة للهفة خالد إلى مروره أكثر من المعتاد، وهو يراه كذلك لأنه يطبق عليه مقياسه الخاص.

ويتجدد زمن الانتظار بتجدد الأحداث، وتتكرر مثل هذه الحالة، عندما تعد أحلام خالدا بمكالمة هاتفية. فقد انتهى معرضه وصار من غير الممكن العثور على مكان ملائم للقاء، حتى إنه كان يعدل عن الفكرة لمجرد احتمال لقائه بسي الشريف وهي بصحبته، تجنبا للإحراج. فاتفقا على أن تطلبه هاتفيا من أجل التخطيط لبرنامج جديد.

وفي انتظار أن يدق الهاتف صباح الاثنين، راح يرسم لوحة لأحد جسور قسنطينة، والتي أخذت منه كل أمسية الأحد، وقسما كبيرا من الليل شعورا منه أنه يرسم الحبيبة:<<كنت أشعر أنني أرسمك أنت لا غير. أنت بكل تناقضك أرسم نسخة أخرى عنك أكثر نضوجا... أكثر تعاريج. نسخة أخرى من لوحة أخرى كبرت معك>>[17]. فقد عمق الحب الانتظار في نفسه، وجعله <<أشد رسوخا داخل جدلية اللحظات والأوقات>>[18] فراح يتوقف عند تفاصيل اللوحة ويدرس كل جزء فيها حتى الصخور والحجارة، والنباتات التي تبعثرت أسفل الجسر. فطالما اعتبر "أحلام" نسخة عن قسنطينة، مثلما هي نسخة عن الوطن. وفي ذلك تأكيد آخر على أنها تمثل الخط المحوري الذي تدور حوله معظم أحداث الثلاثية.

كما ينتظر "خالد بن طوبال" مرورها بمعرض زيان، عندما يعلم بمجيئها إلى باريس، وهو إذاك يذكر الوقائع التي وردت في "ذاكرة الجسد" حين كان (خالد | زيان) ينتظر "أحلام" في القاعة نفسها بالترقب نفسه، وهو يروح ويجيء، وعيناه لا تفارقان باب الدخول. وهنا تظهر <<قوة الاختزان الاستذكاري لحدث مرتقب>>[19] حيث تسترجع هذه الشخصية أحداثا تمت في الماضي، تكون شبيهة بما يحدث لها في الحاضر، فيأتي الارتقاب ليخيّلها، ويواصل رسم إطاره الزمني الفارغ. فقد غابت حياة عن المعرض هذه المرة أيضا، كما لو أن الزمن يعيد نفسه.

ورغم طول زمن انتظار "خالد بن طوبال" الرتيب، وعدم تأكده من حضورها في ذلك اليوم إلا أنه لم ييأس، وظل يترقب قدومها<<مبعثرا بين ارتياب الاحتمالات، مدافعا عن هشاشة الممكن بمزيد من الانتظار>>[20] وذلك من أجل المرأة التي أعادت لحاضره قيمته،

ولحياته معناها، ومنحته حبها وخوفها وقلقها عليه. ولهذا فإنه لا يتذمر من طول الوقت مادامت هي المنتظرة. وقد عبرَ لها عن ذلك من قبل حين قال:<< إن لحظة حب تبررَ عمرا كاملا من الانتظار>>[21] كما أنه يعتبر أن بقاءه مع زوجته – التي لا يأتي على ذكرها إلا نادرا– مجرد شفقة، وأن حياته الحقيقية تكون مع "حياة".

فحياة هي التي تعيد لكل من الشخصيتين السابقتين الإحساس بالأمان والحب، وتعوضهما عن خيباتهما الداخلية، وتمنحهما الشعور بالجمال في جو مشحون بانكسارات الوطن وهزائمه. فهي المرأة التي لا يمكن أن تتكرر بالنسبة إليهما. ولأنها –إضافة إلى ذلك– امرأة عاقر، فقد عبر لها "خالد بن طوبال" عن أسفه لعدم قدرتها على أن تلد طفلة مثلها بقوله: <<أتدرين خسارة ألا تتكرري في أنثى أخرى؟ ستتضاعل كمية الأنوثة في العالم>>[22]. فهي الأنثى المحبوبة دائما رغم ضعفها إذ إنها لا تستطيع شيئا أمام وصايات عمها (سي الشريف) وزوجها الضابط، ولكنها برغم ذلك تعيش حياتها بذكائها.

وهكذا تكشف "أحلام مستغانمي" –من خلال اهتمامها بزمن الانتظار– جزءا من عالم الذات معتمدة في ذلك على لغة مكثفة وغير مباشرة.حيث تبيّن آثار الإحساس بالزمن كما يعمل في ذهن الشخصية بتعابير أكثر عمقا، فلا تكتفي بالعبارات الصريحة مثل:<< كان الوقت يمر رتيبا>>[23] أو<< أطول نهاية أسبوع على الإطلاق. كانت تلك التي قضيتها في انتظار هاتفك صباح الاثنين>>[24] وإنما تتجه إلى ألوان أكثر كثافة، كقولها على لسان إحدى شخصياتها: <<الوقت عدو العشاق>>[25]. و<<الزمن هاجس عشقي، برغم أن العشاق كما الموتى، لا يحتاجون إلى ساعة لكونهم بدخولهم إلى الحب يخرجون من الزمن المتعارف عليه>>[26].

وبذلك تظهر قدرة الروائية على ملامسة الأعماق، والتعبير عن الرغبات الدفينة، فتنقلنا من مرائي الوطن وفجائعه، إلى لحظات الحب الصادق الذي لا تملك الشخصيات سواه لتواجه هزائم الزمن الحاضر. كما تظهر قدرتها أيضا على وصف الجمال المادي والروحي، وبلورة الهوية الأنثوية، ومنطق الحب الذي يحيل على وقائع نفسية، ذات ارتباط وثيق بأفعال الشخصيات.

2) دلالة زمن الحلم في الثلاثية:

يعد الحلم ونقصد حلم اليقظة <<خطوة تحدٍّ لزمن الحاضر المفكك>>[27] حيث تلجأ إليه الشخصية في ثلاثية "أحلام مستغانمي" نتيجة اصطدامها بزيف الواقع وشعورها بالوحدة واليأس، في عالم مليء بالتناقضات.

وطالما تكرر الحلم بالأم، بسبب حرمان الشخصية من حنانها، وهي في حاجة شديدة إليه.فحين انخرط خالد في صفوف الثورة، كان قد خلّف وراءه قبر أمّه الحديث وأخاه الذي يصغره بسنوات، وأباه المشغول بمطالب عروسه الصغيرة. فكان التحاقه بالجبهة مهربا من تلك الأحاسيس المرضية التي ظلّت تراوده، وتملأه حقدا على كل ما حوله <<فالجوع إلى الحنان شعور مخيف وموجع، يظل ينخر فيك من الداخل ويلازمك حتى يأتي عليك بطريقة أو بأخرى>>[28]. فارتمى في أحضان الوطن متمثلا فيه ملامح الأمومة، بعدما أعطاه ما لم يتوقعه <<من الحنان الغامض والانتماء المتطرف له>>[29].

ورغم إخلاصه في العمل الثوري، ووصوله إلى مركز مكّنه من أخذ القرارات العسكرية وإدارة بعض المعارك وحده،والتي صنع من خلالها تاريخه العريق، إلا أنه لم يشف من إحساسه بتيتمه. ومن حزنه على طفولته المبتورة التي قضى جزءا منها في سجن (الكدية) بعيدا عن والدته التي ظلّت صورتها في روحه وذاكرته، حتى وهو فيما بعد الخمسين من العمر.

فالأم بالنسبة إليه هي نبع الحنان المتدفق، والحب الفياض الذي لا حدود له. فقد كانت الوحيدة التي تزوره أيام اعتقاله إثر أحداث الثامن ماي1945 راكضة بين باب السجن وأضرحة الأولياء الصالحين، متضرعة كي يطلق صراحه إلى أن تغيرت ملامحها نتيجة تعبها ومعاناتها: <<(أمّا) التي كدت لا أعرفها عندما غادرت السجن بعد ستة أشهر والتي أمام انشغال أبي عنّي وعنها بتجارته وعشيقاته، أصبحت لا تطلب من الله إلا عودتي لها. وكأنني الشيء الذي يبرر وجودها، والشاهد الوحيد على أمومتها وأنوثتها المسلوبة>>[30]. فقد كان جيله آنذاك، جيل الأمهات المتطرفات في الحب، والآباء المتطرفين في القسوة كما يقول. وهذا ما جعل ذكرى أمّه تلازمه طيلة سنوات عمره وترافقه في أوقات السعادة والشقاء على حدٍّ سواء. وقد كان يرى طيفها عندما سجن أيام الاستقلال فيتصورها وقد جاءت لزيارته باكية حزنا، وإشفاقا عليه.

وحين تعرّف إلى أحلام، أصبح يرى فيها شبها بأمه، بسوارها القسنطيني الذي تحمله في معصمها، وبرقتها وحنانها. فكانت تأتي دائما برفقتها، لتُذهب عنه صقيع الوحدة بعدما عانى الغربة الروحية في بلده، والاغتراب المادي في منفاه. وتُبلور هذه الرؤية نظرة خالد للمرأة القسنطينية الجزائرية التي تقف على طرفي نقيض مع المرأة الفرنسية المجسدة

في نموذج (كاترين|فرانسواز) التي لم يستطع أن يتمثل فيها هذا الشعور النبيل رغم صداقتهما (الحميمة).

غير أن "أحلام" تخذله بزواجها من رجل يسيء إلى ذكرى والدها الشهيد (سي الطاهر عبد المولى) مما جعله يعتب عليها، ويتراجع عن فكرة أن تكون بديلا عن والدته. فحبّ الأم لا يمكن أن تعوّضه قصص الحب الأخرى كلّها، مهما كان عمقها وقوّتها: <<كيف حدث يوما أن... وجدت فيك شبها بأمّي. كيف تصوّرتك تلبسين ثوبها العنّابي، وتعجنين بهذه الأيدي(كذا) ذات الأظافر المطلية الطويلة، تلك الكسرة التي افتقدت مذاقها منذ سنين>>[31]. ولهذا فقد اتّجه إلى قبر والدته، قبل العرس بيوم واحد يبكي خيباته، ويحلم بدفء أمومتها، وصدرها الممتلئ حبّا وحنانا وخوفا عليه.

ومثله "خالد بن طوبال" الصحفي الذي بقي يحلم بأمّه هو الآخر، إلى سنوات شبابه، فكان يراها في كل شيء حتى في مغطس الحمّام،حيث كان يقضي فيه وقته كله،رافضا مغادرته خشية أن يفرغ من مائه كما فرغت دماء والدته، وهي تنزف به لحظة الولادة[32] إضافة إلى أنه كاد يتخذ قطّته أمّا في صغره، قبل أن يصبح لها صغار حقيقيون، لتصدمه وتذكره بأنها ليست كذلك.

والحلم لدى كل من هاتين الشخصيتين (خالد وخالد بن طوبال) منطلق بلحظة الحضور، حيث يأتي زمنه متطابقا والزمن الحاضر، فتظهر صورة الأم المفقودة مع ما يذكّر بها في وقت واحد. وهو حينئذ يعكس آلام الحياة وصعوباتها في اللحظة الراهنة التي تعيشها الشخصية، فلا تجد غيره ملاذا ومتنفّسا لمعاناتها الناتجة عن الإحساس باليتم بكل أشكاله.

غير أن مضمون اليتم يفقد خصوصيته الفردية، وينفتح على تأويل ذي دلالة اجتماعية، تتجاوز عالم الذات لتشمل عالم الجماعة حيث إن الشعب الجزائري بأكمله يعاني اليتم، ويفتقر إلى وصي عليه ينزع الحب بين أبنائه أوّلا، ويقيه شر أطماع الفاسدين المتهافتين لنهب خيراته ثانيا <<فمنذ موت بومدين ونحن يتامى. نعاني إفلاسا عاطفيا يفوق إفلاس اقتصادنا، وعجزا وطنيا في المحبة يفوق عجز ميزانيتنا>>[33]. وتتأكد هذه الفكرة بموت بوضياف، ودخول الجزائر في متاهة وطنية. وبذلك فإن أحداث الثلاثية كلها تشكل سلسلة واحدة من حلقات متعددة، تدور جميعها حول الحدث الأساس المتمثل في موضوع الوطن المنتهك.

وإذا كان حلم كل من الشخصيتين السابقتين متعلقا بالزمن الحاضر فإنّ "حياة" تنتقل إلى الزمن المستقبلي، فتحلم بالحب الضائع الذي تتمنى أن تعيشه مع "عبد الحق"

الرجل الذي التقته في السينما أول مرة، وشعرت بميل نحوه على الرغم من أنها لم تتبين ملامحه في العتمة، ولم يعلق بذاكرتها سوى الكلمتين القاطعتين اللتين نطق بهما أمامها (طبعا وحتما) وعطره. ولكن حواسها قادتها إلى صديقه "خالد بن طوبال" ظنّا منها انه هو، نظرا للتشابه الكبير بينهما. وعندما عرفت الحقيقة، وأمام شعورها بالوحدة واليأس بعد غياب خالد، بدأت في الحلم بمكان تلتقي فيه مصادفة مع عبد الحق لتبوح له بمشاعرها وتعيش معه قصة جديدة، تعتقد أنّها ستكون أروع من التي عاشتها مع صديقه:<<أحيانا كانت تذهب بي الأحلام، فأتصور مكانا قد يجمعنا مصادفة، قد لايتعرف إلي برغم أنه(...) قرأني، بل كتبني طوال هذه القصة مادام هو الذي أهدى تلك الرواية إلى صديقه، وأوصله دون أن يدري.. إلي (...) سأسأله: - هل عرفتني؟ و سيجيب: - طبعا. أو قد يجيب: - حتما...الكلمتين الوحيدتين اللتين قالهما يوم جلس إلى جواري في قاعة السينما. عندها سأعترف له: - اشتقتك... أتدري روعة أن تشتاق إلى شخص لم تلتق به؟>>[34]

وهكذا فإن حياة تحلم بلقاء يغير رتابة حياتها بعد غياب خالد بن طوبال ليصبح الحلم جزءا من كيانها وأحاسيسها، فترغب في تحقيقه وتسعى إلى ذلك إلى أن تعثر على "عبد الحق" في الصفحة الأولى من إحدى الجرائد، وقد اغتالته يد الإجرام.

فبوساطة الحلم إذن، يأخذ الزمن هدنة محددة تنتقل الشخصية في الثلاثية من خلالها إلى زمن آخر ينسيها الواقع ومتاعبه، ويجدد مشاعرها ويمنحها سعادة مؤقتة، سرعان ما تصطدم بالواقع من جديد ليصبح الحلم مجرد وهم وسراب. وبذلك فإن الروائية تستلهم اللاوعي الكامن في وجدان الشخصية ليسهم في بلورة الموقف العام.

3)دلالة توقف الزمن في الثلاثية:

تشعر الشخصية في ثلاثية "مستغانمي" بتوقف تيار الزمن عندما تمر بحدث يترك أثرا في نفسها، إذ تفقد التواصل مع ما يحيط بها، وتركز ذهنها على الحدث المثير الذي طرأ على حياتها، وأسهم في تغيير بعض تفاصيلها، مثلما حدث مع خالد عندما عادت أحلام إلى قاعة العرض، بعد أن أخلفت الموعد السابق، وكان مازال متلهفا إلى قدومها، حيث شعر أن الزمن قد توقف عند لحظة دخولها: <<كنت تتقدمين نحوي، وكان الزمن يتوقف انبهارا

بك>>[35]. فقد جعله التغير الطارئ على حياته والمتمثل في تعرفه إلى أحلام، وما يحمله من طاقات جديدة إليه، يشعر أن الزمن قد فقد تدفقه عند هذه اللحظة التي تفتح عالما جديدا أمامه بكل ما فيه من أمل، وتوق إلى غد أفضل وأجمل، ليكون بذلك قد وجد قدره الذي ينتشله من دوامة الإحساس بالضياع، وعدم جدوى الحياة، بعد الذي عاناه في واقعه المر.

فقد أوحت إليه مخيلته بتثبيت هذه اللحظة تحت انبهاره بقدوم أحلام التي كان يرى أنها المدينة والوطن والذاكرة، وكأنه يتمنى توقف الزمن عندها خشية أن تعود حياته الماضية التي كانت بلا طعم، بعيدا عن وطنه، وعن قسنطينة التي ظل أسيرا في غياهب عشقها. فقد كان يعيش بدفء حبها وهو في مدينة "باريس" الباردة في أجوائها، وفي علاقته بها، إذ كان نهر "السين" يذكره بالمهاجرين الجزائريين الذين ألقي بهم هناك، إثر مظاهرات 17 أكتوبر 1961، حين خرجوا للمطالبة برفع حظر التجول المفروض على شعبهم في الجزائر حيث<<ظلت جثثهم وأحذية بعضهم تطفو على "السين" لعدة أيام>>[36]

ولأنه كان يتمنى توقف الزمن عند كل ما يتعلق بالوطن، راح يوثقه في لوحاته التي تجسد حبه لقسنطينة، فيرسم ملامحها من ذاكرته كما توقفت عندها ذات يوم. فما كان ينتهي من لوحة حتى تولد أخرى، بحي جديد وقنطرة جديدة، وكأنه يعتذر لمدينته عن ابتعاده: <<كنت أريد أن أرضي قسنطينة حجرا...حجرا، جسرا...جسرا، حيًا...حيًا، كما يرضي عاشق جسد امرأة لم تعد له>>[37]

وقد جعله الاستمتاع بجمالية تثبيت الزمن عند المشاهد التي تبعد عنه الحرمان وتعوضه عن سنوات الجفاف العاطفي، يتمنى أن يقف ليصرخ <<كما في إحدى صرخات "غوته" على لسان "فاوست": <<قف أيها الزمن ...ما أجملك>>[38]. ولكنه برغم ذلك لا يتوقف.

وهذا ما حدث مع "خالد بن طوبال" الصحفي الذي كان يرى في الزمن قوة جارفة، تجري باندفاع لتحرمه متعة اللقاء بحياة، في مدينة "باريس" الآمنة بعد غياب دام عامين كاملين، قضاهما في جو موبوء بالرصاص والموت مما جعله يعتب على الاختراعات المتطورة التي لا يوجد من ضمنها ما يستطيع إيقاف مجرى الزمن[39] وهي فكرة أوحيت إليه من إدراكه لحقيقة جريان الوقت، وعدم قدرة الإنسان على منعه من الانسياب. ولعل ذلك من الأسباب التي جعلته يحترف مهنة التصوير، ليوثق كل ما يشعر أنه مهدد بالزوال حيث يرى أن مهمته هي تثبيت اللحظات، والاحتفاظ بالأشياء كما توقف عندها الزمن:

<حمن جثة الوقت... تعلمت اقتناص اللحظة الهاربة، وإيقاف انسياب الوقت في لقطة. فالصورة هي محاولة يائسة لتحنيط الوقت>>[40]

فالشخصية في الثلاثية تدرك تماما استحالة إيقاف الزمن واقعيا، إذ لابد من مواصلة مسيرته. وتلك حقيقته الموضوعية التي تتنافى وسعادتها. ولذلك فهي تستغل اللحظات السعيدة في حياتها بكل ثوانيها وأجزائها، خشية ألا تتكرر بعد ذلك. حيث تسعى "حياة" إلى أن تعيش لقاءاتها مع "خالد بن طوبال" المهدد بالموت في جزائر التسعينيات برغم المصاعب التي تعترض طريقها، فلا تفرّط في مواعيدها أبدا، حتى تلك التي تكون في الأماكن الخطرة التي يطوقها الموت، وتملأها عيون زوجها. وبوعيها لحقيقة فقدانه في أية لحظة، فقد زاد تعلقها به وإحساسها بأهميته في حياتها : << كالذين يعيشون عمرا مهددا علمني الموت من حولي أن أعيش خوف اللحظة الهاربة، أن أحب هذا الرجل كل لحظة.. وكأنني سأفقده في أية لحظة>>[41]

غير أن الشخصية لا تشعر بتوقف الزمن عند الأحداث السعيدة فحسب، وإنما يحدث ذلك أيضا عندما تصادفها واقعة تخلف حزنا عميقا في نفسها كما حدث مع خالد وهو يقرأ خبر نعي زياد الوارد في الجريدة[42]. فقد كان زياد صديقه الوحيد الذي يرتاح إليه، ويتقاطع معه في قيمه ومبادئه ويمنحه السعادة والفرح كلما جاء للإقامة معه في باريس. ولأنهما افترقا بشيء من الحزن الغامض، وبكثير من الصمت الذي ساد بينهما في المدة الأخيرة، بسبب توهم خالد بوجود علاقة بين زياد وأحلام، فقد آلمه خبر موته وشعر أن الزمن قد توقف حينذاك.

ومن خلال ذلك، ترصد الرواية متغيرات نفسية خالد ومدى شعوره بهول الفاجعة، وتأثيرها فيه من جهة، ومن جهة أخرى تجعله يعايش الحدث في امتداداته الزمانية والمكانية، حيث يعود إلى ملامح زياد في آخر لقاء بينهما، ويتوقف عند عينيه اللتين كانتا تحملان له أكثر من وداع، وعند حقيبته التي مازالت في خزانة غرفته، وأشيائه، وكلماته. وتركّز الرواية في ذلك على البنية الزمنية الداخلية، حيث يطفو على ذاكرة خالد كل ما كان مختزنا من تلك الأيام الأخيرة التي قضياها معا في شقته بباريس، قبل رحيله. وفي هذه الحال يتوقف الزمن على المستوى الفني أيضا، نتيجة لجوء الشخصية إلى الاسترجاع والوصف.

وهكذا فإن الرواية تلجأ إلى تجميد الزمن في ذهن الشخصية لتظهر تفاعلها مع الحدث، مما يجعلها تتميز بالدقة في وصف المشاعر، وتحقق تنوعا يمتزج فيه عالما الوعي واللاوعي، حيث تشعر الشخصية بتوقف الزمن إما نتيجة قلقها من حركته المتواصلة التي تتنافى وتطلعاتها، وحين ذاك تتمناه. وإما نتيجة خيبتها وتأثرها بحدث حزين يذهلها. وبذلك يبدو الزمن بمثابة شعور قوي متأصل في خبرتها.

الإحالات:

(1) ينظر: عبد اللطيف الصديقي، الزمان: أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 ، 1995، ص46 .

(2) أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، لبنان، ط2، 2003 ، ص202 .

(3) ينظر: زكريا إبراهيم، برغسون، دار المعارف، القاهرة، مصر، بدون تاريخ ، ص64 .

(4) ينظر: أ. أ مندلاو، الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، لبنان، ط1 ، 1997 ،ص137 ،138 .

(5) أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1993، ص31 .

(6) أ. أ. مندلاو، الزمن والرواية، ص 153 .

(7) عابر سرير، ص 191.

(8) كريم زكي حسام الدين، الزمان الدلالي(دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية) مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط1 ،1991 ،ص41 .

(9) ذاكرة الجسد ، ص45 .

(10) عابر سرير، ص 237.

(11) ينظر : ذاكرة الجسد، ص75 .

(12) عابر سرير، ص183.

(13) ينظر: عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1988، ص78.

(14) ذاكرة الجسد، ص82 .

(15) Marie Français, Forme et signification de l attente dans lœuvre romanesque de Julien Gracq, NIZET, France. 1979, p143.

(16) ذاكرة الجسد، ص97 .

(17) ذاكرة الجسد، ص155 .

(18) غاستون باشلار، جدلية الزمن، ترجمة : خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، بدون تاريخ، ص63 .

(19) غاستون باشلار ، جدلية الزمن ، ص63 .

(20) عابر سرير، ص158.

(21) أحلام مستغانمي ، فوضى الحواس، دار الآداب بيروت، لبنان، ط6 ،1998 ،ص327 .

(22) عابر سرير، ص192.

(23) عابر سرير، ص154.

(24) ذاكرة الجسد، ص149 .

(25) فوضى الحواس، ص238 .

(26) عابر سرير، ص216.

(27) محبة حاج معتوق، أثر الرواية الغربية في الرواية العربية، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص263.

(28) ذاكرة الجسد، ص32 .

(29) ذاكرة الجسد، ص32 .

(30) ذاكرة الجسد ، ص387 .

(31) ذاكرة الجسد، ص21 .

(32) ينظر: عابر سرير، ص47.

(33) فوضى الحواس، ص243 .

(34) فوضى الحواس، ص332 ،333 .

(35) ذاكرة الجسد، ص97 .

(36) عابر سرير، ص59.

(37) ذاكرة الجسد، ص217 .

(38) ذاكرة الجسد، ص195 .

(39) ينظر: عابر سرير، ص226.

(40) عابر سرير، ص197.

(41) فوضى الحواس، 312

(42) ينظر: ذاكرة الجسد، ص288.